(الفخر الأُسري في شعر جرير والفرزدق دراسة موازنة)

أ.م.د.صلاح حسون جبار الباحث/ حسن جبار جلوب

جامعة القادسية

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

Asst. Prof. Dr.Salah Hassoun Jabbar Hassan Jabber Challoub

University of Qadissiya

College of Arts-Department of Arabic

الملخص :

من حتميات الامور أن كل فرد مِنّا نما وترعرع في كنف أُسرة ما جعلنا نفتخر بما يُقال عنها، أو بما توصف به من أوصاف وخصال حميدة، فالعربي جعل من أسرته سراطاً مستقيما يدخله جنة الحياة التي طالما تمسك بها العباد، فضلاً عن انها السور الذي يحمي أبناءها من المخاطر، ولهذا نجد الشعراء كثيرا ما تغنوا مفتخرين بأُسرهم، إذ انهم شغلوا مساحات واسعة من خلال شعر الفخر للتفاخر بها.

وقد جاءت تعريفات للفخر الأُسري بانه نوع من التباهي الذي يصدر من الرجل إذ يتباهى بنفسه او أُسرته وكثير ما وجد الفخر عند الشعراء بالأحساب والانساب فضلاً عن فخرهم ببطولات فرسانهم في الحروب وانتصاراتهم بها[1].

الكلمات المفتاحية:الفخر، الأسرة، الموازنة، الانساب، البيئة.

Summary :

One of the inevitable things is that each of us grew up and grew up in a family that made us proud of what is said about it, or

what it is described as good qualities and qualities. From dangers, and that is why we find poets often sing proud of their families, as they occupied large areas through the poetry of pride to be proud of.

Definitions of family pride have come as a kind of pride that comes from a man when he brags about himself or his family. The poets often found pride in arithmetic and genealogy, as well as their pride in the heroism of their knights in wars and their victories in them

Keywords : pride, family, balance, genealogy, environment.

الفخر بالوالد عند الفرزدق

كثيرة هي الأبيات الشعرية التي تغنى بها الفرزدق بوالده وما كانت له من مآثر ذاع صيتها بين القبائل في أغلب ارجاء المعمورة ضمن المحيط العربي، فكان لذكر والده نصيبا كبيرا في قصائده، فقد يكون هذا الذكر منوطا بما يحاول ان يحصل عليه الشاعر نفسه من هيبة وفخر وعلوّ، أو ان يكون إعلاما صريحا بما يتمتع به الشاعر من ترابط أسري اعتاد عليه افاضل العرب، واذا ما تطرقنا لبعض تلك الابيات التي وجدت في ديوان الفرزدق نتلمس هذا الفخر، فأنه يقول:

إني ابنُ حمالِ المئينَ غَالبِ قَطعتُ عَرض الدوِّ غَير راكبِ

وغمرة الدهنا بغير صاحبِ، والمُغرز الرفدَ بكفِّ الجالبِ [٢]

وكما اعتاد المتلقي من الشاعر ان يستعرض ما له من قوة تارة في النسب وأخرى في العمل، نجده في هذه الابيات يخطو خطاه في عملية فخره من خلال ذكره لوالده الذي طالما تغنى بأعماله النبيلة التي عُرف بها، واذا ما وقفنا قليلا عند هذا الفخر نجد ان الشاعر يتعضد بوالده ليكون له وسيلة ناجعة لِبثّ ما فيه من مشاعر هياجة للبوح بما في داخله من رغبة في حب الظهور والتميز، وان ما ذكره الشاعر من تتابع للأعمال التي قام بها ابوه وما ردفه من اعمال مشابه قام بها ما هي الا تنفيس عمّا تضيق به نفسيته من

حب الارتقاء الى مراتب عليا في المجتمع، فكان لذكر احد افراد الاسرة أثر كبير للوصول الى الفخر الحقيقي الذي أراده الشاعر فذكر الوالد الذي يُعدّ نقطة ارتكاز العائلة والمرآة الحقيقية لها والواجهة الواقية للدفاع عنها حقق نجاحا في تحقيق عامل الفخر لدى الشاعر من كل المناحي.

ويكثف الشاعر في رصّ مناقب والده بفخر كبير على الملأ حتى وصفه بصاحب نار الضيافة المميز الذي يلهف الجائعين والخائفين، وهذا ما وجد في ابياته الشعرية التي قال في بعضها:

إذا ما رأوا ناراً يَقُولونَ : ليتهَا وقد خصرتْ أيديهمُ ، نارُ غالبِ

الى نَارِ ضرَّابِ العراقيبِ لم يَزلْ له من ذُبابي سيفهِ خيرُ حالبِ [٣]

وهنا يقوم الشاعر بمعادلة نار الضيافة باسم والده، ليكون محطّ انظار الجميع وإعلامهم بمكانته ومن ثم مكانة الشاعر نفسه، وهذا هو ما يؤول اليه ذكر الوالد مرات عدة، وإذا ما تتبعنا فخر الفرزدق بأبيه نجده قد صرح كثيراً باسمه؛ وما دليل ذلك إلا لما يحمله هذا الفخر من حقيقة لا تُنكر، فضلاً عن حفر هذا الاسم في صفحات التاريخ، إذ نجده يفخر في البيت الاول بنار ضيافة ابيه التي كان يُميزها الذين يسيرون ليلاً في الشتاء البارد، وقد أخذ البرد منهم مأخذاً فتتراءى لهم نارٌ فيتمنون ان تكون هذه النار هي نار غالب وما كان تمنيهم هذا إلا لما يعلمونه من حسن ضيافة وكرم، ويتفاخر ايضاً بأن والده يستخدم طرف سيفه ليطعن به النوق التي تُعد للضيف فهو يجني من ذلك السيف مجداً كبيراً ألا وهو حسن الكرم والضيافة.

وقد نجد الشاعر يخرج عن أطر المفاخرة بالشخوص الى المفاخرة بالقبائل والعشائر، لتكون ساحة الفخر اوسع وأشمل، وهذا ما دلَّ عليه قوله في البيتين التاليين:

لعمرُك ما للفاخرينَ عَشيرةٌ تُفاخرُني ، ولا لهُم مثلُ غالبِ

بَنى بيتهُ حتى استقل مَكانهُ فسامَى به الجوزاءَ بين الكَواكبِ [٤]

فبعد ان يصرح بالاسم الصريح لوالده امام الجميع إذ كان خير مثال لجده في الكرم[٥]، ففاخر به العشائر العربية بما أبداه من كرم وشجاعة جعلت من الفرزدق يدق

ناقوس الفخر بتلك القيم الأصيلة، يحاول الشاعر ان يثبت لوالده الاماكن المخصصة لعالي الشأن والمكانة لذا اختار الارض بيتا له يتمتع بالاستقلالية التامة التي توازي مكانة النجوم في كبد السماء، وبهذا يكون قد حقق ما يريد.

ولعل ما دفعه للتفاخر بوالده قد يكون اظهار لوضاعة والد خصمه فنجده يركز على هذه الناحية من الفخر، إذ إنه في مأمن من صدق كرم والده غالب لذا نجده يفخر بأن لا يجرأ أحد على مفاخرته بولده غالب لعدم وجود مثيل له، وهنا يبرز التمييز الأسري بين الشعراء.

ويبقى الفرزدق متخذا اسم والده نبراسا له في شق طريق الفخر على الاخرين حتى بعد ان وافته المنية، فللكرماء تاريخ لا تمحوه السنون، فهو القائل:

ألا هل علمتُم ميِّتاً قبل غالبٍ قرى مئةٌ ضَيفاً ولم يتكلمِ

أبي صاحبُ القبرِ الذي من يعُذ به يجُرهُ من الغُرمِ الذي جرَّ والدَّمِ

وقد علمَ الساعي الى قبرِ غالبٍ، من السيفِ يسعى، أنهُ غيرُ مُسلّمِ [٦]

لقد افتخر الشاعر كثيراً بابيه ولعل موضع الفخر لا يرتبط بشخصه فقط ، وإنما هذا الذي اعتادت عليه القبائل قديما من ذكر محاسن الكريم وإذاعتها بين الناس عن طريق الشعر؛ لأنه كان وسيلة إعلامية قوية آنذاك، فنجد الشاعر يفخر بأبيه ولكن بصورة مختلفة فهنا فخره بغالبٍ وهو ميت في قبره فقد استعمل الفرزدق عادة جاهلية اتجاه قبر والده غالب وهي ان يجير من طلب الاجارة بقبر غالب، فقد افتخر في البيت الأول على الأخرين بان والده يدفع الديات عن الناس الضعفاء في محياه وفي مماته، فها هو يدفع مائة من الأبل كدية وهو في عالم آخر، فنجد ما فعله الفرزدق من دفع مائة من الابل لشخص ضعيف الحال كدية عن ابنه ما هو الا ليبقى اسم والده في سجل الكرام ومن خلاله يعتلي الشاعر، وكان فخره بقبر ابيه فضلاً عن دفع الديات ملاذاً للخائفين.

الفخر بالوالد عند جرير

وبما ان الوالد يعد عند العرب رأس الهرم في الأسرة فانه قد أخذ الصدارة في الاستعانة به اثناء الخوض في مسيرة الفخر لدى الشعراء وهذا ما جرى مع الشاعر جرير حينما كان

يواجه خصومه في التفاخر بأسرته، على الرغم مما عُرف عن والده من ضعة [٧]وهي سمات قد تكون مستنفرة عند العرب، إلا ان الشاعر في بعض الأحيان يحاول ان يجمّل صورة شخص ما في سبيل البث من خلاله ما يريد الاعلان عنه.

وإذا ما قلبنا الابيات الشعرية في ديوان جرير نجد ان هنالك ابياتا حاول الشاعر ان يظهر فيها صورة جميلة لوالده ومنها قوله:

لأبي الفُضُولُ على أبيكَ ولم تَجدْ عماً بَلغتَ بِسَعيهِ أعْمَامي

فأنا ابن زيد مناة بين فروعه لن تستطيع بجيدريك زحامي[٨]

لاشك ان الشاعر عاش حياته متمنياً ان يكون له من الشأن ما كان لأقرانه، إذ انه قضى صباه في كنف أُسرة لا تمتلك مناقب يرتقي بها منزلة الفخر، فضلاً عن انه من قبيلة كليب التي هي الاخرى لم تُعطِهِ ما تمنى فنجده يلجأ متوسلاً بأعلام غير اسم والده(عطية) وكأنه استعمل التورية لغرض الفخر؛ ولعل السبب في ذلك يعود لافتقار ابيه لمقومات الفخر مثل الكرم والشجاعة وغيرها، مما دعاه للجوء الى طريق آخر يعوض فيه عن اسم والده الصريح، إذ نجده بفخر في البيت الاول(لأبي الفُضُولُ على أبيكَ) دون ان يذكر اسم والده فيفخر ان والده يعلو على مرتبة والد خصمه لما يملكه من فضل.

ونراه يعود في البيت الثاني ليفخر ويقول(فأنا ابن زيد مناة) إذ إنه تجاوز في سلسلة نسبه ابيه حتى وصل الى زيد بن مناة ليضعه بديلاً عن والده الذي افتقر الى ما أوجده عند زيد بن مناة فأخذ يفاخر بهم من يخاصمه، وهذا يدل على ان الشاعر كان يعيش في كنف اسرة لم تحمل مما يتفاخر به لذا حاول اخفاء الاسماء الصريحة أو استبدالها أو الركون الى اسماء هي ابعد في النسب اليه من والده لتكون خير وسيلة للتفاخر.

ونجد الشاعر هذه المرة يتوسل ايضا بمن هو ابعد من درجة الأب ليجعله في هذه الدرجة ليتمكن من الوقوف في ميدان التفاخر امام اقرانه من الشعراء البارزين فيقول:

مضرٌ أبي وأبو المُلُوكِ، فهل لكم ، يا خزر تَغْلِبَ ، من أبٍ كأبينا

هذا ابنُ عمّي في دِمشقَ خليفةً لو شئتُ ساقكُمُ إليّ قطينا [٩]

فعلى الرغم من ان العرب اعتادت على الفخر بمحامد آبائهم والتغني بما سجلوه من أمجاد إلا إننا نلاحظ إن الشاعر قد كرر توسله بأسماء لغير اسم والده فهذا دليل على عدم امتلاك هذه الشخصية لمقومات الفخر الذي يجعلها من سادات القوم الذين يتغنى بكرمهم القوم ويفخرون بهم، فنراه يقول(مضرٌ أبي وأبو المُلُوكِ) فإنه يعود ليتخطى والده من حيث النسب حتى يصل الى مضر الذي هو من الاعلام التي لا تحتاج الى تعريف لتكون له حجة دامغة لمن يتفاخر عليه، فقد اعتاد الشاعر على هذا الاسلوب وهو الهروب من ذكر اسم والده لمعرفة الناس به، فضلا عن انه حاول ان يرتقي بشخصه الى مرتبة الملوك من خلال قوله(وأبو الملوك) لعل هذه المنزلة التي وازن فيها بينه وبين الملوك تساعده في المرور امام خصمه في معركة التفاخر التي طالما كان يخوضها جرير.

وفي بعض الاحيان يلجأ الشاعر لعمل موازنة يحاول فيها الحط من الاخر مقابل ما يذكره من علو شأن أسرته وهذا ما قام به الشاعر حينما قال:

أبُونا مالكٌ ، وأبوكَ تيمٌ ، فقد عُرفَ الأغرُّ من البَهيمِ

فعمرٌو عمنٌّا وأنا ابن زيدٍ ، فأكرم بالأُبُوة والعُمُومِ

مَنعَنا بالرماحِ بَياض نَجدٍ ، وقَتلنَا الجَبابرةَ العِضامَا[١٠]

فهذه الموازنة التي جسدها الشاعر في البيت الاول تحدد مدى رغبة الشاعر في الانتقاص من الاخر، إذ ان شعور جرير بالفراغ الداخلي والحرمان الذي عاشه منذ طفولته ولَّد في داخله حبّ الوصول الى درجات العُلا فنراه يتفاخر على الاخرين ولكن بطريقة مختلفة فشرع لنفسه ان يكون أسياد القوم لعشيرته الام(تميم) هم آباؤه فنراه يضع أثناء فخره اسم سيد من سادات القوم عوضاً عن والده حتى لا يُرد عليه فخره، فيقول(أبُونا مالك) و(وأنا ابن زيدٍ) فاختار مالك وزيد وانزلهم منزلة والده مما جعله يفخر بهم ليجاري من اراد ان يفاخره فوجب عليه ان يستبدل ابيه بهم لما صنعوه من مجدٍ قديم.

وإذا ما تتبعنا اغلب ابيات جرير في الفخر بالوالد لم نقع على اسم والده الصريح(عطية) لذا استمر في ذكر اسماء تعويضية تعزز مكانته في المجتمع وهذا ما وجد في اغلب ابياته الشعرية ومنها:

أنّا ابنُ أبي سَعدٍ وعَمرٍ ومَالِكٍ ، وَضبّةُ عبْدٌ واحِدٌ وَابنُ واحِدِ

أجِئتَ تَسوقُ خُضراً جُلودُها الى الصَّيدِ من خاليّ صخرٍ وخالدِ[١١]

فخلف هذه الاسماء التي يسطرها الشاعر هنالك سر قد أثقل من كاهل الشاعر وجعله يتلعثم من ذكر اسم والده الصريح، فقد اعتاد ان يخفي حقيقة والده وراء سادات قومه حتى يجعل له مساحة واسعة للتفاخر مع الاخرين، إذ ان ذكره لاسم والده يُمكّنُ الاخر من اظهار ما يخفيه الشاعر من بخل والده، فنراه يرمي الكرة للتفاخر بوالده في ساحة القروم من القوم فهو يتحول من فحلٍ الى آخر، وهذا ما وجدناه في البيت الاول، فالشاعر قرّب البعيد في نسبه ليعتلي به؛ ولعل الذي قام به الشاعر من تفاخره بهذه الطريقة كان له من الاضطرار ما يكفي، لأنه عاش في زمن استيقظت به العصبية القبلية فنشط ما كان فيها من فخر بالأحساب والانساب، فلا بدَّ ان يجاري أقرانه من الشعراء.

الفخر بالأخوال عند الفرزدق

عندما نقول الاسرة يعني كل من تربطه علاقة دم او صلة رحم بالأفراد داخل منظومة هذه الاسرة، فقد يكون هنالك أثراً طيباً للرجال من جهة الأم وذكر طيب يستأنس به القريب لتكون مدعاة فخر له، فبعدما قلب الشاعر في تاريخ آبائه واجداده من جهة والده نراه يمد نسيج الأسرة حتى بلغ الأخوال منهم فإخوان والدته كانوا جديرين بان يتلقفهم الفرزدق مادحا ومفاخرا وكذلك ليوسع ميدان هذه الاسرة العريقة ومحاولة تأصيلها من جهة الأم فضلاً عن الأب، لذلك نجده يقول في بعض ابياته:

وخالي بالقَّنا تركَ ابنَ ليلى أبا الصَّهباءِ محتفراً لهابا

كفاهُ التَّبل تَبلَ بني تميمٍ وأجزره الثعالب والذئابا [١٢]

فالذكر الصريح لخاله في بداية البيت الشعري هو يعد تقديما لهذه الشخصية من باقي أسرته، وإعلاما حقيقيا لما يريد ان يبلغه بحق هذه الشخصية(خاله) الذي أكد انتسابه له بالضمير(ياء المتكلم)، وبهذا انطلق الشاعر في فخره بالأشخاص الذين لهم مناقب حقيقية ومنهم اخواله ليخرج على غيره وبيده لامة حربٍ متكاملة لا يقوى الآخر على الطعن بها، فنجد الشاعر في البيت الأول يفخر بان خاله كان من الفرسان الشجعان الذين

لهم صولات في الدفاع عن القبيلة فنراه يرسم بأشعاره انتصار خاله على أبي الصهباء(بسطام بن قيس بن مسعود) وكيف تغلّب عليه واستطاع ان يقدمه كهديه للضباع والسباع، فكان لموقع الخال من الأسرة لا يختلف كثيرا عن موقع الأب عند الفرزدق، فقد وظف كل ما يمكن توظيفه ليعود له بالفائدة في افراز ما يختزنه من حب التفاخر على الآخر وأجده حقق ما يبتغيه.

ولم يقف حب الشاعر ورغبته في التفاخر على ذكر المناقب فقط وانما بات يذكر لفظة التفاخر في شعره لتكون كعنوانا لما يريد ورسالة تصل الى مريدي التفاخر معه، وانه قد برّز من أسرته أخواله ليكونوا الوسيلة الحقة لما يريد، فيقول:

إنِّي لأستحيي ، وإنّي لفاخرٌ على طيئ بالأقرعينِ وغالبِ

إذا رفع الطائيُّ عينه رفعة رأني على الجوزاء فوق الكواكبِ[١٣]

فباقتران الشاعر نفسه بأخواله وهم –لا شك– من أسرة واحدة تربطهم روابط دم ورحم انما يريد من وراء ذلك الرفعة والزهو، فان الفخر عند العرب لا يقف عند حدّ معُين وإنما نراه يتشعب ليشمل كل شيء تستهويه الأنفس، فنرى الشاعر بعد ما انتهى من فخره بأبيه أمتد بفخره ليصل به الى اخواله فهذا يعني ان الشاعر قد توسم بالفخر من الاتجاهين خيرا، أيّ من قبل الأب والأم، فهو كان يتمتع بحسبه ويفتخر من انتسابه لغالب فضلاً عن اصل والدته العريق، فنجده من خلال البيت الاول الذي صرح به الشاعر انه يفتخر على قبيلة طي بأخواله(الاقرع بن حابس وأخوه فراس) لما لهم من شأن ومكانة مرموقة انمازوا بها، فلهذا جاء الشاعر بذكرهم ليكونوا خير عون له في مفاخرته.

وما زال الشاعر يردد لفظة(خالي) في ابياته الشعرية التي يفاخر بها الناس والقبائل الاخرى، ويسطر ما لهم من مناقب تذكر، فنجده يقول:

خالِي الذي تركَ النجيعَ برمحهِ يومَ النَّقا شرقاُ على بسطامِ

والخيل تنحطُ بالكماة ترى لها رهجاً بكلَّ مجربٍ مقدامِ [١٤]

فمن عادات العرب وتقاليدها انها تفتخر بالفرسان الشجعان وتحكي ما يقومون به من بسالة وشجاعة في سوح الوغى، وهنا اغتنم الشاعر الفرصة لرسم الصورة البهية

لأخواله الذين كان لهم الاثر البالغ في هذه الساحات التي تعد محط انظار المجتمع العربي بأكمله، فالشجاعة والبسالة كانت اجدر بالتفاخر فضلا عن الكرم، وقد يكون لها الاولوية لما إنماز به العرب من حبهم وشغفهم بالحروب وسير الفرسان، فقد عبّر الشاعر مفتخراً بخاله الذي اردى بسطام صريعاً في البيداء، على الرغم من إن الحرب كانت مشتعلة فلم يبالي من قتل الفرسان، فهنا أراد الشاعر ان يبين إنه ينتمي لهذه الأسرة التي من قوادها هذا البطل، فبضمير المتكلم الذي جاء به ينسب ما لخاله من شجاعة لنفسه.

ونجد الشاعر في بعض الاحيان يريد ان يوازن في حبه وتفاخره بافراد هذه الأسرة التي حملت بين طياتها الابطال والاشاوس والكرماء فنجده يقول:

ليس أبٌ كحنظلة بن رعدٍ ولا خالٌ كضبّة للفخارِ

هما جَبلانِ جارُهُما منيعٌ إذا ما أعطيا عقدَ الجوّارِ

تبنَّى فيهما شرفُ المعالي خَراطيمَ الجحاجِحة الكبَارِ [١٥]

وهنا بدا واضحا موقف الفرزدق من افراد أسرته في التقديم والتأخير، فبحنكة شاعر حكيم استطاع ان يوازن بدقة بين والده وخاله، ليكون لكل منهما مكانته العريقة في نفس الشاعر اولا وفي شعره ثانيا، فوصفه لهما بالجبلان وجمعهما بمكانة واحدة يزيد من قوة الشاعر ورصانته امام الاخرين فنجده يركز في فخره على القمم العالية من الاشياء لتكون رأسا للهرم ويكون هو المرآة العاكسة لذلك الهرم من خلال الاشارة الى إنتمائه اليهم واظهار مناقبهم وبث ما يريد ان يبثه للمتلقي وهو بهذا يحقق الغلبة على من يريد، فنجده يفخر بخاله الذي يراه أهل للفخر من خلال كرمه وشجاعته واسند فخره بذكر حنظلة ليدعم ما جاء به من فخر إذ شبههم بالجبال التي تنقذ الانسان عند اعتلائها من مخاطر الفيضان فهم خير أُناس للفخر وخير ما يقدموه اثناء الذكر.

ولم يقف الشاعر في ذكر خاله من خلال ما عرف من مناقب بين العرب، وانما راح يطالب بمثلهم لدى الاخر بقصد تعريته، وهذا ما تُلمس من خلال بعض ابياته التي يقول فيها:

يا ابن المراغة اين خالُك إنني خالي حُبيشٌ ذو الفعالِ الأفضلُ

خَالي الذي غَضبَ المُلوك نُفوسَهُم واليه كان حباءُ جَفنَه يُنقلُ[١٦]

فهنا بدت اللهجة العنيفة لدى الشاعر وهو يصارع خصمه بما يحمله من سلاح يعده ناجعاً في نزاله وهو الخال الذي لا يباريه في المقابل خال لخصمه، لذا نجده في موقع القوة من خلال احد افراد أسرته التي طالما تغنى بأفعالها وامجادها، فالحجج التي بينها الشاعر تحمل في مكنونها كثير من الدلائل ومنها ابراز شخصية من أسرته يشار لها بالبنان، ومنها أعلاء لشخصه(الفرزدق) من خلال انتمائه لهذه الشخصية، ومنها تقليل شأن المقابل الذي قد لا يمتلك ما يمتلكه الفرزدق من افراد أسرة مميزة بحسب ما يره الفرزدق.

وهنا قد حقق الشاعر(الفرزدق) ما يبتغيه من علو لأحد افراد اسرته وهو(الخال) الذي كان له الفضل في تفاخر الشاعر ووقوفه امام خصومه من الشعراء في ميدان التفاخر، وكذلك تبيان مدى علاقة الشاعر بهذه الأسرة التي نال شرفية الرابطة معهم من جهة الأم والأب، فكانا الجناحين اللذينِ يطير بهما.

الفخر بالأخوال عند جرير

لابد للشاعر في ميدان الشعر ان يستعمل كل ما يعينه على غلبة الاخر، فاذا كان جرير غير موفق في جعل اسم والده أداة للتفاخر ينتقل الى فرد آخر من أسرته لعله يكون عنصراً فعالاً في مبارزة المتفاخرين من اقرانه، لذا نجده فعلا قد ذكر لفظة (أخوال) في بعض ابياته الشعرية ومنها:

أخوالَي الُّشمُّ مِنْ عمرِو بنِ حنظلةٍ وما اللئامُ بنُو قيسٍ بأخوالي

قومي الذين إذا عُدّتْ مكارمهم فديت أيامهم بالعم والخالِ [١٧]

فالتمييز والحد الفاصل الذي وضعه الشاعر جرير في البيت الاول دليلا على محاولة تثبيت الحقائق التي قد يكسب من خلالها بعض الانتصار في ابراز افراد اسرته بالشكل اللائق امام خصومه.

فعلى الرغم من ان العصر الاموي قد ايقظ الصراعات القبلية ومنها التفاخر الذي نهى عنه الاسلام، ورجوع القوم الى ايام الجاهلية ليتفاخروا فيما بينهم بالآباء والاجداد

والاخوال والاعمام، نجد الشاعر كغيره يحاول ان يجد لنفسه مكانا للمفاضلة بين القوم، إلا ان الشاعر كان خالي اليدين من فخر الاخوال؛ لان خاله قد عُرف عنه بأنه أبله وقد عُير به جرير كثيراً فلذكاء الشاعر وقدرته الشعرية التي مكنته من فخره بأبيه عطية على الرغم من انه قفر المآثر تمكنه أيضاً بان يفخر بأخواله بالصورة نفسها، ونرى الشاعر يبتعد كل البعد عن ذكر الاسماء الصريحة لخاله الذي يفسد عليه فخره فنجده يقول(أخوالَي الُّشمُّ مِنْ عمرِو بنِ حنظلةٍ) فقد اعتاد الشاعر على الالتماس بالأسماء المشهورة في قبيلته التي يرجع نسبه اليهم فيأتي بهم ليجاري فخر اقرانه، فهو يفخر بكرمهم وشجاعتهم ويقارن بينهم وبين بني قيس ويفضلهم عليهم.

وعلى الرغم من علم جرير بما يحمله اخواله من سمعة في المجتمع إلا انه يصر بالمفاخرة بهم امام خصومه من الشعراء، وهذا ما فعله حينما قال:

ما السِّيدُ حين ندبتَ خَالكَ منهُمُ كَبني الأشَدّ ، ولا بني النزّالِ

خالي الذي اعتَسر الهُذيلَ ، وخَيلُهُ في ضيقِ مُعتركٍ لها ، ومَجالِ

جِئْني بخالكَ يا فَرزدَقُ واعُلمن : أنْ ليسَ خالُكَ بالِغاً أخْوالي [١٨]

لا يخفى على أحدٍ ان قانون فن النقائض الذي كان جرير والفرزدق من مؤسسيه اعتمد على نقض ما تفاخر به الاول وقلب ما تفاخر به للطرف الثاني، فنجد الشاعر يتوجب عليه ان يفخر بما فخر به صاحبه، فلا بد لجرير ان يأتي بالفخر بأخواله فتسلق كعادته الفحول من القوم معتمداً على التورية في اظهار الاسم الصريح لخاله ليوهم المتلقي بمن يفخر، فنراه يفخر بخاله الذي لم يفصح بأسمه وبقوته التي جابه بها الهذليين، ويفاخر الفرزدق بعدم استطاعته في ان يأتي بأخوال مثل اخوال جرير، وهنا نستطيع ان نقول ان الاعلام الذي يكون الشاعر هو القائد فيه خير سلاح لتغيير الحقائق التي يدونها الناس، فمحاولة خلط الاوراق من قبل جرير وتجميل الصور هي براعة عُرف بها الفحول من الشعراء.

ويستمر الشاعر جرير في جعل احد افراد اسرته(خاله) في محل الشريف الشجاع الذي يستحق المنزلة المرموقة في المجتمع، وهذا ما تبيّن من خلال ما قاله من ابيات شعرية نذكر بعضها التي يقول فيها:

وخَالّي ابن الأشدّ سَمَا بسعدٍ، فَجاوَز يَومَ ثَيتلَ ، وهو سَامي

فأورَدهُم مُسلَّحتي تياسٍ ، حظيظٌ بالرّياسةِ والغِنامِ [١٩]

فمما لاشك فيه ان الشاعر يفخر بأخواله ليبرز في ذلك ما لأُمه من أصل في نسبها ولعل جرير اورد فخره هذا ليرد على الفرزدق، الذي طالما انتقص من قدر نسب امه وأخواله، ألا ان جرير اعتاد على الاختباء وراء الفحول من القوم الذين بنوا لهم مجداً كالجبال الشامخة، فنراه يقول(وخَالّي ابن الأشدّ سَمَا بسعدٍ) إذ جعل ابن الاشد(سنان بن سمي المنقري) خال له ليفاخر به الفرزدق وغيره من الشعراء وهذا ديدن الشاعر جرير في الفخر الاسري إذ انه لا يصرح بأسماء عائلته كي لا يتعرض له خصمه بما يعيبهم.

الفخر بالأجداد عند الفرزدق

لاشك ان الأسرة نسيج مترابط يقوى بما يحمله أفرادها من حب وألفة، وهي لا تنتهي عند شخص بحد ذاته انما تمتد بالشخوص بحسب قوة الشخص وعطائه وما تركه من أثر في نفوس الاخرين، أو ما صنعه من أعمال تجعل منه مميزا بين أفراد تلك الأسرة، فهي –لاشك– لا تنتهي عند الوالد اذا ما وجد هنالك امتدادا لذلك الوالد يوازيه في الاثر او ربما يفوقه، فالشاعر الفرزدق وجد في جده لابيه ما يجعله يتغنى فخرا بذكره وذكراه، ومن بين الابيات التي تفاخر بها ذاكرا الاجداد قوله:

دُعِمن بحاجبٍ وابني عقالٍ وبالقعقاع تيار الفُراتِ

وَصَعصعةَ المُجيرِ على المنايا بدمَّته وفكّاكِ العُناةِ

وصاحب صوارٍ وأبي شريحٍ وسلمى من دعائم ثابتاتِ [٢٠]

مما لاشك فيه ان الافتخار صفة قد انماز بها العربي منذ العصر الجاهلي، فنجده يفخر بكثرة المال والولد فضلاً عن الكرم وحفظ الجار وحمايته فقد اعتمد الشاعر هذا الجانب الذي إنماز به جده صعصعة ليبيّن انه من امتداد طيب مما يساعده على تحسين صورته بين خصوم، وما اسهابه بذكر تلك الاسماء الا لتكون له خير حجة ودليل لمفاخرته بأسرته التي حملت تلك الرموز والاعلام، إذ انه يفخر بأن جده هو من يجير اللاجئ اليه فيحول بينه وبين ما يحيط به من مخاطر، فضلاً عن إنه يفك القيود عن

الأسارى ويوهبهم حريتهم، فبهذا تتنوع صور الكرم عن صعصعة ليجعلها الشاعر أداة للفخر الأسري تارة، وجلبابا يرتديه ليحميه من سهام اعدائه تارة أخرى.

ولطالما كرر الشاعر التذكير بمفاخر اجداده وما قاموا به من أعمال جعلت منهم محط احترام وتقدير، وما هذا التكرار إلا دليلا على ما يختزنه الشاعر من حب الظهور بوساطتهم وكذلك هي عادات فطم عليها العرب قديما، فنجده يقول:

وكانَ لنّا شيخانِ ذُو القبرِ منهُما وشيخٌ أجارَ النَّاسَ من كُلِّ مقبرِ

على حينَ لا تُحيا البَناتُ ، وإذ هُمُ عُكُوفٌ على الأنْصابِ حولَ المدوَّرِ

أَبي أحدُ الغوثينِ صَعصَعةُ الذي متى تخُلفِ الجَوزاءُ والنَّجمُ يُمطرِ

أجارَ بناتِ الوائدينَ ومن يُجر على الفقِر يعَلمْ أنه غيُر مُخفرِ

أجارَ بناتِ الوائدينَ ومن يجر على الفقرِ يعلم أنهُ غيرُ مُخفرِ[٢١]

فما استعمال فعل الماضي(كان) في بداية البيت الشعري الا علامة بارزة لقصدية الشاعر في تقليب تاريخ أسرته العريق بمفاخر آبائه وأجداده، فكثيراً ما نتلمس في شعر الفرزدق مزجا للفخر بين والده وجده وهذا ما يُدعّم من حجته وزيد من قوتها اتجاه خصمه، إذ يأتي فاخرا بالصفات التي تحلى بها جده صعصعة إلا وهي انقاذ الموءودات، أذ يقول(وشيخٌ أجارَ النَّاسَ من كُلِّ مقبرِ) فمن الملاحظ أن الشاعر يأتي بفخر لا غبار عليه من ناحية جده، وبعد تدعيم تلك الحجة واثباتها نجد ينقل هذا العمل الى ساحته لكونه الامتداد الحقيقي لجده صعصعة فنجده يفخر في معظم الابيات المذكورة بأن جده حال دون موت البنات في الجاهلية، إذ ينتقل فيقول(أَبي أحدُ الغوثينِ صَعصَعةُ) فهنا يتبين لنا ان الشاعر قد وظف كل هذا الفخر لينهل منه لنفسه ويبين ما لأسرته من تاريخ يستحق الذكر والتفاخر به .

ولم يفتر الشاعر من ذكر الاسماء البارزة في أسرته- وأخص بالذكر- الاجداد منهم، فنجده يقول:

أتهجو بالأقارع وابن ليلى وصَعصعةَ الذي غَمرَ البحارا

وناجية الذي كانت تميمٌ تعيشُ بحزمهِ أنَّى أشارا

به ركز الرِّمَاح بنو تميمٍ عشيَّةَ حلَّتِ الظُّعُنُ النسارا[٢٢]

إن اسم صعصعة عندما يُذكر تجده محفوفاً بالمناقب فيستغرب الشاعر بأن جريرا يهجو جده الذي طالما تغنى بكرمه وحلمه وهو من الأعلام التي لا تحتاج الى تعريف، فلعل السبب هو ما كان يدور بين الشعراء من نقائض فلعله قد رد جرير على الفرزدق وفند ما جاء به من فخر، إذ ان فن النقائض يتطلب ذلك، إذ افتخر الفرزدق بأجداده الذين لهم شأن كبير الذي لا يستطيع جرير الاتيان بمثل هذا النسب فأخذ يعدد ما له من اجداد وما انمازوا به من مناقب، وعلى الرغم من أن الشاعر يحب ان يفخر بأسرته إلا ان الحقائق في بعض الاحيان تقف حائلا دون ذلك، ربما بسبب ما تركه الاباء والاجداد من ذكر في الوسط المجتمعي لبيئة الشاعر فيكون مقيدا بتلك الاثار سواء أكانت مندوحة أم مذمومة.

وقد ترد لفظة الجد في سياق الكلام لتكون مرادفة لاسم جد الشاعر كما ذكر قائلا:

وصَعصَعةُ الخيرِ الذي كانَ قبلهُ يُشرفُ حَوضاً في حيا المجد مُترَعا

وجدِّي عقالٌ من يَكُن فاخراً به على النَّاسِ يُرفع فوقَ من شاء مَرفَعا [٢٣]

فهنا يؤكد الشاعر ان(صَعصَعةُ الخيرِ) هو جده وهو(عقالٌ من يَكُن فاخراً به على النَّاسِ) بذكر مفردة جده التي تثبت تسلسله في الرتب الأسري لدى الشاعر، فلهذا قلنا أن منابع الفخر تعددت عند الشاعر ولم تقتصر على والده وإنما امتدت لتشمل الأجداد ومنهم جده صعصعة الذي شغل مكانة متميزة في العصر الجاهلي إذ أخذ على عاتقه إحياء النفس التي حرم الله قتلها وكأنه عمل بما جاء به القرآن في قوله تعالى(**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**)[٢٤] فأخذ الشاعر ينهل من الاباء والاجداد فخره الذي بوأه مكانة بين الناس، فنجده هنا يفخر بجده صعصعة إذ يقول بأنه قد صنع لنفسه مجداً يرتقي به الى العلا مما جعل الشاعر يفاخر به خصومه ويمتد فخر الشاعر الى الاجداد من القبيلة ليذكر ما اختصوا به من مكانة أسرية في المجتمع.

ولم يقتصر ديوان الفرزدق على القليل الذي ذُكر من تفاخره بأسرته عن طريق الاجداد أنما هنالك كثير من الابيات التي وردت تجسد ذلك الفخر الذي انماز بالترابط الاسري عند الشاعر في بيئة اعتادت على ذكر مناقب اجدادهم لأبيهم لتكون علامة دالة لهم بين الاسر العربية أو ربما في العشيرة نفسها.

وإذا ما حاولنا ان نجعل موازنة بين الشاعرين في المحاور التي ثُبتت في هذا المبحث(الفخر الاسري) نلاحظ ان كلا الشاعرين خاضا غمار الفخر الأُسري من خلال ما وجد لهما من ابيات شعرية، فلا بد أن نقف على ما تمخضت به هذه الدراسة من خلال الابيات الشعرية التي افتخر بها كلّ من الشاعرين.

فلقد استطاع الفرزدق ان يرسم لنا لوحة متكاملة لتكون عنوانا للفخر الأُسري، شكلا ومضمونا، ما يدل على انه كان يعيش في كنف اسرة لها من المجد ما يجعله يفخر باسم كل فرد منهم دون تخوّف، فضلا عن ان الحقبة التي عاشها الشاعران كانت تتطلب ان يفخر الشاعر بأسرته، وهذا ما لم نتلمسه عند الشاعر جرير لكونه ابتعد كل البعد عن اظهار صورة لأسرته في شعره كما فعل الفرزدق، واكتفى بالإيماء لهم والتخفي من وراء حجاب مستعملا التورية في فخره.

فاذا ما اخذنا فخر الفرزدق بوالده نجده يأتي بمفردة (النار) مع اسم غالب وكانه وضعها ليحرق بها فخر جرير بوالده، وفعلا لم يستطع جرير ان يذكر اسم (عطية) مطلقا في فخره امام الفرزدق، فقد جسّد الفرزدق لوالده غالب كل مآثره التي ذُكرت من خلال فخره بوالده مما عزز عنده قوة الاعتزاز بالنفس، وأما صاحبه جرير فلم يجد لأبيه ما يستحق الفخر مما دعاه للتوسل باسم غير اسم (عطية) ليكون له أب بالانتساب فيفخر به امام صاحبه.

وإذا ما اتجهنا الى فخر الفرزدق بأخواله فنجدهم كما اسلفنا خير رجال يعتضد بهم الانسان، فقد فخر بهم الفرزدق لأمرين: الاول لتعزيز وتجميل صورة والدته من خلال ذكر اصالة عائلتها، فكان يريد ان يميز نفسه من خلال اسرة والدته وما لها من مكانة بين الناس والامر الثاني: ان يبين شجاعة وكرم اخواله ليقول انه ينهل كل الصفات المحمودة من اسرة والدته واسرة والده فيكون بهذا جاور الكواكب بمنزلته، واما ما وجدناه عند جرير

لا يختلف عمّا سبق، فانه لم يفصح باسم لخاله، وانما كعادته يتوسل بأسماء بعيدة عن أمه فيأتي بها مفتخرا ومن الملاحظ ان الشاعر جرير لم يكن من المفاخرين في بداياته لعلمه انه يفتقر لكل وسائل الفخر فللحاجة الشعرية ومجارية خصومه توجه الى غرض الفخر فاخذ يستعير كل من له مفاخر من قومه فيأتي به ليفاخر الاخرين.

اما فخر الفرزدق بجده صعصعة فقد شغل الشاعر مساحة واسعة من الفخر إذ انه شمل العصر الجاهلي واحياءه للموؤدات، والعصر الاسلامي وكيف اسلم، فضلا عن خصال الكرم عنده، مما جعله الشاعر وسيلة للفخر في مسيرته الشعرية، وعلى العكس من هذا تماما ما حصل مع الشاعر جرير إذ اننا لم نجد في ديوان الشاعر- بحسب اطلاعي- على اي بيت شعري تذكر مفاخرة الشاعر جرير بجده بالاسم الصريح لذا افتقر هذا المحور في البحث من ذكر تفاخر جرير بجده، وهذا ما يدلل على الفراغ السيري لجده في تاريخ العرب، فضلا عن الفراغ العاطفي في نفس الشاعر لما تولد في نفسه من بخل جده وعدم مساعدته له في معترك الحياة الصعبة فقد تخلت قريحة جرير الشعرية عن جده كما تخلى عنه جده سابقاً.

ونخلص الى إن جريرا كان غير موفق في فخره بأسرته بالمستوى الذي يحميه من سهام الفخر التي انهالت عليه من خصومه، فإنه لم يستطع ان يقيم لنفسه فخراً بأسرته وبآبائه يوازي فخر الفرزدق، لما عُرف عن والده عطية وبخله وقصته المشهورة في شرب الحليب من الشاة، وعن كرم والد الفرزدق الذي عُرف بالكرم والسيادة، وعن انفاق جد الفرزدق صعصعة الاموال الكثيرة لافتداء الموءودات وما جاء به من بخل جده الذي اورثه لأبيه، وعن اخوال الفرزدق وشجاعتهم وما وجده جرير عند خاله الذي عُير به لبلاهته، فكل هذه الفوارق كانت حائلا بين تفوق فخر جرير على الفرزدق[٢٥].

---

[١] – ينظر: الحياة الادبية في العصر الجاهلي، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩٢م.

[٢] – ديوان الفرزدق: ٢٨.

[٣] – (م . ن): ٣٠.

[٤] – (م . ن): ٣٦.

[٥] – ينظر: التطور والتجديد في الشعر الاموي، شوقي ضيف : ١٤٣

[٦]– ديوان الفرزدق:٥٢٩.

[٧] – ينظر: شرح ديوان جرير، محمد اسماعيل عبد الله الصّاوي، مطبعة الصاوي، ط١،مصر، ١٣٥٣هـ.

[٨] –ديوان جرير: ٤٢٨.

[٩] –(م . ن): ٤٧٧.

[١٠]–(م. ن): ٤٢٣–٤٣٣.

[١١] –(م . ن): ١١٩

[١٢] –ديوان الفرزدق: ٩٧.

[١٣] –(م . ن): ٤٠.

[١٤] – (م . ن): ٦١٠.

[١٥] –ديوان الفرزدق: ٢٤٨.

[١٦] – (م . ن): ٤٩٢.

[١٧] –ديوان جرير : ٣٤٠.

[١٨] –(م . ن): ٣٧٨.

[١٩] –(م . ن) : ٤٠٦.

[٢٠] –ديوان الفرزدق: ١٠١.

[٢١] –(م . ن): ٣٢٩.

[٢٢] –(م . ن): ٣٠٨.

[٢٣] –(م . ن): ٣٤٩.

[٢٤] – سورة / المائدة: ٣٢.

[٢٥] –ينظر: جرير قصته حياته ودراسة اشعاره، جميل سُلطان، المكتبة الهاشمية ، دمشق، ٢٠١٠م: ١٤٩–١٥١.

المصادر والمراجع:

–القرآن الكريم.

– التطور والتجديد في الشعر الاموي، شوقي ضيف، دار المعارف، ط٨، القاهرة ، ١٩٥٩م .

– الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩٢م.

– جرير قصته حياته ودراسة اشعاره، جميل سُلطان، المكتبة الهاشمية ، دمشق، ٢٠١٠م.

– ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه الاستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت–لبنان، ١٩٨٧م.

– ديوان جرير، تح: دكتور نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٩م.

– شرح ديوان جرير، محمد اسماعيل عبد الله الصّاوي، مطبعة الصاوي، ط١،مصر، ١٣٥٣هـ.